-المحاضرة السادسة-

النقد الانطباعي

١ - مفهوم النقد الانطباعي:

هو النقد الذي يعتمد الذوق الخاص بالناقد، القائم على التجربة الشخصية، يحكم الناقد فيه باستحسان العمل الأدبي أو باستقباحه من دون أن يعلل ذلك أو يفصح عن أسبابه، وإنما يستند في حكمه إلى ذوقه، ويستفتي انطباعه النفسي عن القصيدة. وقد مثّلت هذه المرحلة بدائية النقد عند الأمم جميعها. وهو يعرف بالنقد الذاتي التأثري أو النقد الذي يكون مبعثه الإحساس بأثر الشعر في النفس أيضًا، وعلى مقدار وقع الكلام على الناقد.

٢ - ظهور مصطلح النقد الانطباعي:

ظهر هذا المصطلح في أوآخر القرن التاسع عشر في فرنسا، حيث اطلقت الانطباعية أول الأمر على مدرسة في التصوير ترى أنّ الرسام يعبّر - في تجرّد وبساطة - عن الانطباع الذي ارتسم فيه حسيًّا، بصرف النظر عن المقاييس العلمية كلها، فالمهم هو الانطباع الذي يضفيه الضوء مثلًا على الموضوع لا الموضوع نفسه.

٣ -النقد الانطباعي في الأدب العربي القديم:

ظهر النقد في العصر الجاهلي مع ظهور الشعر، وأول ما عرف عرف أوليًّا، يحتكم إلى تأثّر الناقد بالقصيدة التي تعاطاها وخلّفت عنده انطباعًا ما. فبناء على هذا الانطباع يبدي حكمه الفوري. ويعرف هذا النوع من النقد بالنقد الذاتي التأثري، إذ يرجع العرب- في كل ما يتصل بأدبهم- إلى السليقة، يصدرون عنها في أحكامهم التي تتركز على ما وظّفوه من أنماط أدبية. وتذوق الجمال في الأدب يعود عندهم إلى الطبع الذي نشأوا عليه وبيئتهم العربية الأصيلة في جوانبها كلها، لذا نجد نقدهم مطابقًا لفطرتهم، صادرًا عن أذواقهم وتأثرهم بالجمال حسبما تعوّدوا عليه من تمييز بين الغثّ والثمين في فنون القول.

وقد كانت للنقد الانطباعي في العصر الجاهلي اتجاهات عدة وصلتنا بحسب المواقف التي حصل فيها الحكم من العالمين بالشعر والشعراء الناقدين لشعر غيرهم. وانطلاقًا من النصوص النقدية التي خلّفها التأريخ يمكننا التمييز بين اتجاهات نقدية عدة في العصر الجاهلي.

أولًا: النقد اللغوي:

وهو النقد القائم على الوقوف عند مواطن الخطأ والغلط في التوظيف اللغوي. فقد كان العربي على صلة وثيقة بأسرار لغته، يدرك بفطرته الدلالة الوضعية للكلمات، فإذا ابتعد الشاعر عن تلك الدلالة ووظّف الكلمة في غير موضعها المناسب أحسّ المتلقي بذلك إحساسًا مباشرًا وانتقده بما تجود قريحته به.

من أمثلة ذلك ما روي عن أبي عبيدة قال: مرّ المسيب بن علّسة بمجلس بني قسي بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم:

ألا أنعم صباحًا أيّها الربع واسلم تحية محزون وإن لم تكلّم

ولما بلغ قوله:

وقد أتناسى الهمّ عند احتقاره بناجٍ عليه الصيرية مكدم

قال طرفة وهو صبي يلعب مع الصبيان:(استنوق الجمل) فالصيعرية سمة الإناث لا الفحولة والشاعر أخطأ في إطلاق صفة الإناث على الذكور من الإبل. وقد تفطّن له طرفة وأدرك الخطأ بفطرته وانتقد الشاعر مباشرة بعد سماعه للأبيات.

ثانيًا:النقد المعنوي:

كان العربي شديد الحساسية بلغته، يدرك بفطرته أن اللغة وضعت للتعبير عن ذاته وعن إحساسه وعن قيمه ومُثُله، وعن البيئة والطبيعة من حوله. فإذا وافقت لغة الشاعر المعنى الذي عبّر عنه موافقة سليمة رضي المتلقي عنها وعبّر عن رضاه وإعجابه، أما إن ابتعدت العبارة عن إصابة الهدف كأن ينحرف إلى مبالغة لا يرضاها أو إلى معنى لا يرى صحة البوح به أو التحدّث فيه لبعده عن قيمه العامة ومُثُله، نفر منها واستهجنها.

والأمثلة عن النقد المعنوي كثيرة من ذلك ما عيب عن المهلهل بن ربيعة في قوله:

فولا الريح أُسمع أهل حَجْر صليل البيض تقرع بالذكور

فقد وصف هذا البيت بأكذب ما قالته العرب، لأنّ منزله كان على شاطئ الفرات وحجر في اليمامة، والمسافة بينهما مسيرة أيام.

ثالثًا: النقد العروضي:

ارتبط الشعر العربي في نشأته ببعض الأنغام الموسيقية، إذْ اتفق الشعراء على نغمات معيّنة تأتلف جميعها في الوزن والقافية، ونتج عن هذا الاتفاق أنّ الأذواق العربية في الجاهلية ألفت هذه الرتابة التي تحققها وحدة الإيقاع والنغم. ونفرت العرب من كل ما هو نشاز. مثل ذلك ما عابته على النابغة الذبياني حين وقع الإقواء في قوله:

أمن آل مية رائحٌ أو مغتدي عجلان ذا زادٍ وغير مزوّدِ

زعم البوارح أنّ رحلتنا غدًا وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ

قال الرواة: فقدم النابغة المدينة فعيب ذلك عليه فلم يأبه حتى أسمعوه إيّاه غناء، فانتبه النابغة للإقواء فلم يعد إليه وقال:(قدمت الحجاز وفي شعري ضعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس).

رابعًا: تقديم الشعراء:

من صور نقد الشعر الذاتية عند الجاهليين، تقديمهم شاعرًا على غيره تقديمًا مطلقًا من دون إبداء رأي معقول يسوغ التقديم أو يعزّز الحكم ويخرج به عن حيز الذاتية وأثر الهوى. من أمثلة ذلك أنّ النابغة الذبياني جلس في قبته في (سوق عكاظ) يحكم بين الشعراء فأنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ثم الخنساء التي أنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخر ومنها:

وإنّ صخرًا لتأتمّ الهداة به كأنّهُ عَلَمٌ في رأسه نارُ

فقال: والله لولا أنّ بصيرًا-يريد الأعشى- أنشدني آنفًا لقلت إنّك أشعر الجن والإنس. فقال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك.

فقال له النابغة: يا أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع

قال فحسن حسان لقوله.

ومن الروايات كذلك قول النابغة: إنّه اجتمع عنده الأعشى وحسان بن ثابت والخنساء. فقدّم الأعشى وأخّر حسان فغضب حسان وقال له: والله لأنا أشعر منك. فقال له النابغة:

إذْ تقول ماذا؟ قال حسان إذْ أقول:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقال النابغة: إنّك شاعر، ك لكن أقللت أجفانك وأسيافك. فقد عاب عليه توظيف

(جفنات) و(أسياف) لأنّها تفيد القلة، وأمّا كثيرها فيقال له (جفان) و(سيوف)، كما عاب عليه توظيف (الضحى) وكان الأبلغ أن يقول (الدجى) لأنّ الضيف أكثر ما يكون طروقًا بالليل. ومن هذه النماذج النقدية ما نقل عن منازعة امرئ القيس وعلقمة بن عبدة الفحل واحتكامهما إلى أُم جُندب زوج امرئ القيس في أيّهما أشعر. فطلبت منهما إنشاد بيت شعري على روي واحد وقافية واحدة يصفان فيه الخيل. ولما أنشدا حكمت لعلقمة، فسألها

زوجها لماذا؟ فقالت: لأنّك قلت:

فللزجر ألهوب وللساق درّة وللسوط منه وقع أخرج مهذبِ

فجهدت فرسك بسوطك ومريته فأتعبته بساقك.

وقال علقمة:

فأدركه حتى ثنى من عنانه يمرُّ كغيث رائحٍ متحلّب

فأدرك فرسه ثانيًا من عنانه، لم يضربه ويتعبه.